باب التربية والتعليم

﴿ الباب الثانى (الولد) من كتاب إميل القرن التاسع عشر ﴾

(٢٥) من هيلانه الى اراسم فى ٦ مايو سنة — ١٨٥

كانت عاقبة جدى فى السعى ان فزت بوصل حبل المراسلة من وراء ما بيننا من المسافات الشاسعة بعد طول انقطاعه ولست اعد من الترسل ما تناوبناه منذ ثلاث سنين من المكاتيب [١] غير المهمة التى كان دأب كل منا فيها الاقلال من القول جهده فانا محتاجة فى تخاطبي معك الى مناجاة قلبك بفكر تام الاختيار وضمير كامل الحرية .

لا ارجع الى ما مضى من الحوادث فالكلام فيه عديم الجدوى وانما اقول انى قد عرانى لخبر نقلك من سجنك الى غيره من الالم ما لج بى فى التصميم على اللحاق بك لحاجة لم احسن بمثلها من قبل ولم يمنعنى من المضيّ معها سوى ما غلبنى من الاحساس بوجوب طاعة امرك وسماع نصائح صديقك الدكتور ورعاية مصلحة والدنا فانصمت لذلك الاحساس آسفة مرتقبة تحقق املى فى اللقاء .

علمت مما سبق من رسائلى ما عليه « اميل » من صحة البدن وازيد الآن ان احدثك عن تقدمه فى اكتساب العلم فاقول : ليس ولدنا بدعا فى الاطفال (وهو امر اعترف به وانا فى غاية الاستكانة والفضاضة) بل

(١) لم نورد تلك المكاتيب التى ذكرتها لاننا لم نر فيها مصلحة للقارىء فان اكثر فائدة فيها انما هى تكميل عدد الرسائل

ان الناس هنا يجدون فيه شيئاً من توحش سكان اطراف العالم ولكني احبه كما هو لاني ارى جميع ما فيه منبثقاً عن الفطرة ولم أُعْنَ حتى الآن بتعليمه مواضعات المعاشرة وآداب الاختلاط لان جل عنايتي كان مصروفاً الى النظر في اخلاقه واحوال نفسه والاجتهاد في تقويم طبعه وتربية ادراكه وسأسرد لك عن تجاربي معه ما تحكم به على مبلغ نجاحي في ذلك .

قد لاحظت ان فيه نَهْمَةً وهي عامة في جميع الاطفال فأي واحد منهم سلم منها ولكن قد اتت علي معه ساعة ارتعدت فيها فرائصي خوفاً عليه من تلوث نفسه برذيلة افظع من النهمة واشنع منها كثيراً ألا وهي الكذب . ذلك ان جورجيا كانت تخبز ذات يوم قرصاً فطيراً فلما استوى اخرجته من الفرن ووضعته ساخناً على الخوان ثم دعتنا شؤون مختلفة للخروج الى البستان فتركناه وخرجنا الا « أميل » فقد لاحظت منه امراً دهشت له وهو اجتنابه الذهاب وراءنا فلما عدنا الى المطبخ لم نجد للقرص اثراً فاستولت علي ريبة شديدة في امره ولكني تجاهلت السارق والتفت الى جميع الحاضرين مظهرة اني اخاطب الكل فقلت ليت شعري من ذا الذي اخذ القرص من فوق الخوان فاما قوبيدون وجورجيا فانهما لم ينبسا بكلمة لعلمهما البراءة من نفسيهما واما « اميل » فلما لم يكن شأنه كذلك لم يسعه الا أن خجل وصاح قائلاً « الدُّبَّة هي التي اخذته » .

فلما سمعت منه هذا الجواب انجرح فؤادي غماً وقد علمت من احد مكاتيبي السالفة ان الدبة هي كابة البيت ولما اعلمه بينه وبينها من الالفة والارتباط رأيت ان هذه فرصة سنحت لايقاظ وجدان العدل في نفسه فصممت على اغتنامها وقلت ان كانت الدبة هي الآثمة فلا بد من جلدها

واشرت الى قوبيدون بتنفيذ هذا الحكم وكنت فى كل هذه المدة أتأمل فى وجه « اميل » واحس بأن فؤادى يطير شعاعاً ولا غرو فأى شىء كنت ارجوه منه اذا كان اصر على الكتمان وانكار الحق ؟ ادرك الزنجيُّ بلا ريب موجب جزعى وفهم ما قصدته فتقدم الى الدُّبة المتجنى عليها تلوح عليه سمات جلاد ممن تمثلهم الروايات المحزنة وكانت قد بدت عليها منذ حين علائم الانس بمن فى البيت والسكون اليهم لفراغها من أداء واجب العناية والحماية لجراثها وكأنها ادركت جميع ما حصل لانها كانت تنظر الى « اميل » نظر المستعطف الآمل ولسان حالها يخاطبه بقوله « أهكذا تدعنى أعاقب ظلماً » فاضطرب الغلام من هذا النظر ثم اجهش بالبكاء واستلقى بين يديَّ قائلاً كلا ليست الدبة هى التى اخذته بل انا الآخذ .

عند ذلك سُرِّيَ عنى ما كان ابهظ نفسى من تراكم الكدر ولكنى رأيت ان من الواجب علىّ فى هذا المقام الثبات وعدم التعجل فى اظهار الحنو فصحت قائلة له من حيث انك تجنيت على الدبة ما لم تجنه فهى التى ينبغى الرجوع اليها فى طلب العفو فتفهم انه فى الحقيقة قد فرط منه فى حقها هفوة يجب الاستقالة منها فعمد الى جيب صدرته فاخرج منه نصف القرص لانه لم يكن تيسر له اكله كله ومد يده به اليها قائلاً خذى فتدللت عليه فى بداية الامر ولكنها لما رات ان استماحة العفو منها صادرة عن قلب سليم ازدردت تلك اللقمة اللذيذة وسمات الرحمة والشره بادية على وجهها فبعثنا ذلك على ان قهقهنا جميعاً .

انا وان كنت لا اقوم طاعة الاطفال لوالديهم باكثر مما تراه فيها اجدنى فى بعض الاحيان مضطرة اضطراراً شديداً الى قمع اهواء « اميل » والحيلولة

بينها وبين الوصول الى ما قد يضره ورأيت ان من الواجب عليّ ان استعين في هذا الامر باستعداد فطري يوجد قطعاً في جميع الاطفال على السواء ذلك ان « اميل » لمّا يحصل في ذهنه من حوادث العالم الخارجي الا صورة مبهمة فتراه يعتبر ما يتعاصى عليه من الاشياء ولا يوافق رغبته ذا قوة متمردة وارادة متصرفة . خذ لذلك مثلاً وهو ان له كلفاً بان يقلب مرتعاً من البستان بمقلب صغير فاذا باشر هذا العمل سلاني واضحكني منه ان اراه يسحق ما يخرج من المدر برجليه الضعيفتين مبدياً دلائل الابتهاج بالظفر كأنما في كل مدرة منها عدوله قد ارغمه واذله واذا اخترق الاسوجة النباتية فاصابه فرع منها في وجهه تناوله بيده وجعل يهزه ويعبث به ولسان حاله يخاطبه موبخاً له بقوله : « علام تؤذيني ايها الغصن الحقير » واني لأخاله يجلد البحر اذا اغرق مركبه الصغير على نحو ما فعل به كزرسيس (١)

هذه الشكاسة التي في الاشياء وانما اسميها بذلك موافقة لافكار الاطفال تدعو « اميل » الى اظهار الطاعة للكبار الذين يعلمون من نواميس الكون وسننه اكثر مما يعلم فان خضوع العالم لتلك النواميس والسنن هو الذي الزم الانسان المحافظة على رعاية احكام التجربة واقتفاء آثار السلف ولذلك قد اتفقت مع قوبيدون على طريقة بها يعاقب « اميل » كلما عصى اوامري واغفل الأخذ بنصائحي بحيث اني لا اتولى عقابه بنفسي بل اكله للجمادات

---

(١) كزرسيس هو ابن داريوس الاول احد ملوك الفرس خلف اباه في سنة ٤٨٥ ق . م . ومات في سنة ٤٧٢ . ق . م اراد اتمام فتح البلاد اليونانيه الذي كان شرع فيه والده فارسل اسطوله اليها فاضطرب البحر واغرق قنطرة كان اتخذها من السفن فامر بجلده ثلاثمائه جلدة كما يعاقب الاسير العاصي .

المحيطة به فانه بذلك يعتاد على ان يلتمس فى الطاعة جنّة تقيه شر ضعفه وشر ما للفواعل الكونية من الطغيان والعتو

وقد جريت معه على هذه الطريقة بعينها فى ضرب آخر من ضروب سيرته وانى وان لم اصل بها فى جميع الاحوال الى النجاح المقصود اخالنى على الطريقة الموصلة اليه . ذلك انى رأيته شغفا بالاندلاق من البيت وكثيراً ما انذرته بان فى خروجه منه وحيداً ضرراً عليه فلم يجد ذلك نفعا فلما رأيت منه قلة الاصغاء الى نصائحى فى هذا الأمر او عزت الى قويدون بان يغرى به بعض اطفال القرية فكانوا كلما رأوه فى الخارج تظاهروا له بانهم يحسبونه وليدا خذل بيته وقبضوا عليه وردوه الىّ قهرا فادرك من ذلك الحين الموعظة التى اردت ان اعظها اياه وهى ان الانقياد والطاعة امثل من القسر

على انى رأيتنى قد عرفت فيه انه لم يخلق لان يعيش وحيداً ولا لأن يقضى جميع زمانه مع الكبار لانه مادام ذا عقل وقصر على مخالطتنا يشيخ قبل بلوغه زمن الشيخوخة واما اذا اختلط بلداته وعاشر اترابه اشرق فى وجهه نور الفرح بابتهاجهم وسرى الى نفسه روح السرور منهم ولهذا رأيت من مصلحته ان يتخذ له رفقاء من اطفال القرية جعلت امر اصطفائهم موكولا الىّ حتى لايكون له فيهم أُسَيّ سيئة ولم الاق فى هذا الامر صعوبة لان الناس هنا لاشتغالهم طول النهار بتحصيل رزقهم يرون فى تسليم اطفالهم لمن يقوم بشأنهم تخفيفاً من حملهم وقد اصبح بيتنا من هذه الجهة شبيها بملجأ من ملاجئ الاطفال فاذكر لك من اخصاء « اميل » اثنين فقط وهما غلام اسمه وليم يكاد يساويه فى سنه اعنى انه فى الخامسة او السادسة من عمره وفتاة فى السابعة من عمرها عليها مخايل الحسن تسمى ازابلى

ولكن الناس يختزلون هذا الاسم اختزالا لاشبهة فى وجه مناسبته فيدعونها بلّى (كلمة تليانية معناها جميله)

اخص ما اعنى به فى شأن اولئك الاطفال الثلاثة هو ايجاد رابطة اختلاط وعشرة بينهم فترانى اذا صرّحت لهم بالانطلاق الى التنزه اوزع عليهم ثلاثة اصناف من الطعام ولكنى اراعى فى هذا التوزيع ان يكون الخبز كله لواحد منهم واللحم البارد مثلا للثانى والفاكهة للثالثة فاذا حانت لهؤلاء المتبطلين ساعة اشتهاء الاكل وهى قلما تتأخر لانهم يأكلون اكل صغار الذئاب دعا من نال الخبز منهم رفيقيه الى مقاسمتهما اياه على شرط ان يقاسماه ايضاً ما معهما من اللحم والتفاح مثلا فتقبل منه هذه الدعوة عن طيب نفس لان لكل منهم مصلحة فيها وبهذه الطريقة يتعلمون بالغريزة الجري على سنة المعاوضة التى هى على ما ادرى حقيقة معنى المساواة

من اصول الرذائل الخبيثة التى اصرف فى استئصالها من نفس اميل جل اهتمامى الأثرة فان الاطفال مجبولون على الاستئثار بكل شىء وهذا الاستعداد الفطرى مبنى فى الغالب على الشره والحرص ذلك ما ارانى قد لاحظته فيهم واود أن اكافحه واغالبه وقد رأيت انه لا ينجع فيه زخرف القول وبلاغة المنطق وان الواجب علىّ كما رأيت فاصبت ان استخلص لولدى ما اسوقه له من العبر فى الاعمال . ولعلك سائلى عما فعلته للوصول الى هذه الغاية فاقول : انى انتقيت من بين الاشجار المثمرة فى بستاننا ثلاثا جعلت لكل من غلمانى واحدة منها مدة السنة ولكونى انا التي توليت توزيعها عليهم قد اعطيت « لاميل » كرزة ولوليم خوخة ولبلّى اجاصة طعمها قويبدون ولمّا تثمر واحدة منها لتأخر فصل الصيف وانى والحق أقول فى

شك من وفرة احمالها هذه السنة وعلى كل حال ارى ان هؤلاء البستانية الصغار الثلاثة مهتمون بملاحظة ماوضعوا عليه ايديهم وقلما يفترون عن ذود الدود وغيره من الحشرات المهلكة عنه وليس يبعد على «اميل» فى ابان الكرز أن يأكل جنى شجرته جميعه دون ان يعطى منه شيئاً لرفيقيه . ان فعل ذلك فصبراً لانه لا بد ان يأتى يوم مقايضة الجزار بمثله ذلك انه متى انشأ الخوخ والاجاص ينضجان ذكر وليم وبلى معاملة « اميل » لهما وقابلاه بنظيرها ما لم يكونا اكرم منه نفساً واسخى كفاً فيرضيا مقاسمته مالهما على ما فيه من الميل مع الاثرة وفى كلتا الحالتين عقوبة له .

(للمكتوب بقية)

« الجامع الازهر »

وقفنا على مقالة ضافية فى جريدة « پيسه أخبار » الهندية الاسلامية كان بعثها صاحب هذه الجريدة الفاضل من مصر عند ما جاءها فى سياحته التى تكلمنا عنها فى جزء مضى . يصف فيها مصر وصفاً تاريخياً سياسياً ادبياً علمياً جاء فيه بالقتيل والنقير : وتكلم حتى عن راكبى الحمير . وشبه الحكومة المصرية بالشطرنج يلعب به الاورد كرومر . . . واطال الكلام على الجامع الأزهر فنلخص من كلامه فيه ما يأتى :

قال : دخلت الجامع الأزهر الذى هو اشهر المساجد فى العالم من حيث التعليم واما من حيث السعة والزخرف فيوجد ما يفضله فى القاهرة وغيرها — ثم تكلم بالمناسبة على جامع القلعة وغيره وقال — انا ادع